الفصل الأول
ظاهرة العنف

مقدمة:

إن ظاهرة العنف التي أصبحت سمة من سمات العصر الذي نعيشه، إنما هي ظاهرة غريبة على المجتمع بصفة عامة؛ فقد انتشر العنف في الشوارع والمدارس، وأماكن العمل، والأسواق. وسوف نحاول أن نتناول موضوع العنف من جميع جوانبه؛ لنتعرف إلى أسباب هذه الظاهرة ومظاهرها، والعوامل التي تسببت بسرعة انتشارها؛ حتى أصبحنا جميعًا نعاني منها ومن نتائجها.

العنف في اللغة:

يعرف العنف بأنه الشدة والمشقة، وهو ضد الرفق، وكل ما في الرفق من الخير، ففي العنف من الشر مثله. بينما يعني التعنيف التوبيخ والتقريع واللوم.

العنف في اصطلاح العلماء:

يعرف العلماء المتخصصون العنف بأنه: "كل تصرف يؤدي إلى إلحاق الأذى بالآخرين". وقد يكون هذا الأذى جسميًّا، أو نفسيًّا؛ كالسخرية والاستهزاء، وفرض الآراء بالقوة، وإسماع الكلمات البذيئة. وتعد جميعها أشكالًا مختلفة لظاهرة العنف.

وبصفة عامة، يمكن تعريف العنف بأنه "سلوك إيذائي، ومرتكز على استبعاد الآخر، عن طريق الحط من قيمته، أو عن طريق تحويله إلى تابع، أو بطرده خارج الساحة، أو عن طريق الإيذاء المعنوي أو الجسدي. وهو سلوك أو فعل يتسم بالعدوانية، يصدر عن فرد أو جماعة؛ بهدف استغلال الطرف الآخر في علاقة قوة غير متكافئة من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية، والهدف منها الإضرار المادي والمعنوي.

وهذا يعني أن العنف يتضمن عدم الاعتراف بالطرف الآخر، وقد يكون العنف باليد أو اللسان، أي باستخدام كلمات بذيئة، وهو بالتأكيد يتضمن الكراهية والتهميش، وحذف الطرف الآخر. والعنف سلوك

مكروه، وغير مقبول في جميع أنحاء العالم، وغالبًا ما يقصد العنف فئة معينة بحد ذاتها.

الفرق بين العنف والعدوان:

يعتبر العنف جزءًا من العدوان، وشكلًا من أشكاله، سواء كان ذلك العدوان على الأفراد، أو على الممتلكات، أو على المجتمع. لكن، يظهر العنف جليًّا بأنه سلوك عدواني مستمر. والعنف له طابع مادي خالص، في حين أن العدوان يشتمل على المظاهر المادية والمعنوية معًا.

نشأة العنف:

ظهر العنف منذ وجود آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وابنيه هابيل وقابيل على الأرض؛ حيث قتل قابيل أخاه هابيل حسدًا وظلمًا، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾

لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة].

وبشأن الآيات السابقة، قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول الله تعالى، مبينًا وَخِيمَ عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم، وهما هابيل وقابيل، كيف اعتدا أحدهما على الآخر، فقتله بغيًا عليه وحسدًا له، فيما وهبه الله من النعمة، وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل، ورجع بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة.

وعبر التاريخ، نؤكد أن البشرية قد شهدت أحداثًا كثيرة تميزت بالعنف؛ فالعنف سمة من سمات الطبيعة البشرية، وعلى مدى التاريخ نجد شواهد تدل على لجوء الإنسان إلى العنف؛ استجابة لانفعالاته من الغضب. وتعتبر محاولة التسلط من أجل السيطرة على الآخرين هي المصدر الأساسي للعنف، سواء كان هذا التسلط تسلط فرد على آخر، أو تسلط طبقة على مجتمع، وكذلك تسلط مجتمعٍ على مجتمعٍ آخر.

ظاهرة العنف في عالم الطفل:

تشكو كثير من الأمهات من تصرفات أطفالهن العنيفة والعدوانية، وخاصة الذكورَ، الذين تتراوح أعمارُهم ما بين الرابعة إلى الثامنة. وتتسم هذه السلوكيات بالهجوم المضاد، والذي ينطوي على الرغبة في التفوق على الآخرين، أو السخرية، بإلقاء الشتائم، أو الصياح والصراخ، والركل والضرْب، وقذف الأشياء والتخريب.

فهل هذه السلوكيات العدوانية تولد مع الطفل؟ أم هي سلوكيات مكتسبة من بيئته؟ وهل هناك مِن سبيل للعلاج؟

سلوك مكتسب:

يمكن تحليل السلوك العدواني للطفل بأنه -شأنه شأن أي سلوك آخر- سلوك متعلم، اكتسبه الفرد من البيئة التي يعيش فيها بلا شك، واستعملها

كنوع من الحماية الذاتية، وتطورت لتصبحَ وسيلة لحل المواقف الصعبة التي يواجهها الطفل؛ لذلك فهو يفتقر لوسائل الاتصال الاجتماعية السليمة التي تؤمن له احتياجاتِه، وتحقق له التوافق الاجتماعي، دون اللجوء إلى إيذاء الآخرين.

العنف ضد الأطفال وآثاره النفسية والاجتماعية:

تتناقل وسائل الإعلام المختلفة -بين الحين والآخر- أخبار حوادث تمارس ضد الأطفال وصغار السن، سواء كان ذلك في الأسرة الواحدة من قبل الوالدين أو الأخ، أو تكون تلك الحوادث من خارج الأسرة ضمن نطاق المجتمع. إن الإحصائيات تشير إلى انتشار ظاهرة العنف ضد الأطفال في المجتمعات العربية والغربية على حد سواء، ومما زاد في انتشار هذه السلوكيات والظواهر المرفوضة بُعد الناس عن القيم والأخلاق، وتعاليم الشرائع السماوية، التي تحض على الخير والفضيلة، وتنهى عن الشر والعدوان، ومما لا شك فيه أن آثار العنف ضد الأطفال لها عواقب وخيمة وآثار سيئة على نفسية الطفل وعلاقاته مع محيطه وبيئته، فما هي تلك الآثار النفسية والاجتماعية؟

يتأثر الطفل كثيرًا من نهج العنف المتبع في التعامل معه من قبل والديه في الأسرة التي يعيش فيها، فالطفل الذي يتعرض للتعنيف من قبل أحد والديه تراه عرضة أكثر للإصابة بالأمراض النفسية عند بلوغه وفي كبره؛ حيث يتذكر تلك المواقف العنيفة والتجارب المريرة، فيتألم لذلك؛ مما يؤثر

على صحته النفسية. قد يصاب الطفل المعنَّف بالقلق المرضي، أو الرهاب الاجتماعي، أو حب العزلة عن الناس، خاصة إذا كان العنف يأخذ شكل العنف الجنسي، وهذا من أشد أنواع العنف وأكثرها إيلامًا للنفس البشرية.

يؤدي العنف في التّعامل مع الأطفال إلى المساهمة في تشكيل شخصية عدوانية، تحب الإيذاء بمحيطها ومجتمعها، ولا تراعي مشاعر الناس وأحاسيسهم، فالطفل المعنَّف يتذكر دائمًا كيف كان يتعرّض للعنف المستمر، دون أن تراعى أحاسيسه ومشاعره؛ مما يفقده في كبره حاسة استشعار مشاعر الناس، أو الاكتراث بها. كما تأخذ تصرفات الطفل المعنَّف طابع العدوانيّة وسرعة الغضب، بسبب إحساسه بأن ضعفه عندما كان طفلًا صغيرًا كان السبب في تعرضه للعنف.

يؤثر العنف ضد الأطفال في جعلهم يحجمون عن بناء علاقات اجتماعية صحية بناءة مع محيطهم؛ لعدم امتلاكهم النفسية السليمة القادرة على بناء علاقات اجتماعية مثمرة، فهم يخشون دائمًا من محيطهم، فتراهم يفقدون الثقة بسرعة بمن حولهم. تؤدي بعض حالات العنف الشديدة ضد الأطفال إلى صناعة المجرمين والقتلة في المجتمعات، فقد أظهرت الدراسات النّفسية على كثيرٍ من السفاحين أن معظمهم قد تعرّض للعنف بشكلٍ من الأشكال في صغره. يؤدي العنف اللفظي المتبع مع الأطفال في بعض الأسر إلى مشاكل اجتماعية؛ حيث يعتاد الطفل على سماع الألفاظ النابية، فيمارسها في حياته، وفي تعامله مع النّاس.

العنف مع الأطفال يؤثر على صحتهم بعد عقود:

ذكرت دراسة حديثة أن من يتعرضون لسوء المعاملة في طفولتهم أكثر عرضة لتدهور حالتهم الصحية والمعيشية بعد عقود من الزمن.

وتتبع الباحثون 8076 شخصًا منذ ميلادهم في عام 1958 وحتى سن الخمسين. ووجد الباحثون أن أولئك الذين تعرضوا للإساءة يحتمل ألا يشتروا منزلًا خاصًّا بهم قبل سن الخمسين وأن يكونوا أكثر عرضة للإصابة بأمراض طويلة الأمد، بنسبة تصل إلى 70 بالمئة.

وقال الفريق البحثي -وهو من كلية لندن الجامعية- إن الذين عانوا من أكثر من شكل واحد من أشكال الاعتداء كانت نتائجهم سيئة على نحو مضاعف، بالمقارنة مع أولئك الذين لم يتعرضوا لأي إساءة أو سوء المعاملة.

سمات الطفل العنيف:

يتسم الطفل العنيف بكثرة الحركة، وربما كانت الحركة غير هادفة، كما أنه يمتلك الرغبة في استفزاز الآخرين، والمشاكسة والعناد، والغضب والعصبية. ويتميز الطفل العنيف بأنه لا يحب التعاون أو المشاركة مع الآخرين، ويبدو أنانيًّا ومحبًّا للتملك والسيطرة.